الفصل السابع

الفلسفة: مذاهبها وآثارها

الفلسفة: مذاهبها وآثارها

يتوقع كثير ممن لم يطلعوا على العلوم الفلسفية التفصيلية أنهم ربما حرموا شيئًا مهمًّا، فيغشاهم شعور خاص إذا سمعوا كلمة (الفلسفة) دون أن يعرفوا مضمونها ومكنونها، حتى أنت أيها القارئ الكريم، لا تستطيع الفكاك من شيء ولو يسير من هذا الشعور، فإذا كان اطلاعك عليها محدودًا فقد يتراءى لك وكأنك أمام سر عظيم قد حرمت معرفته، وليس بمقدورك الوصول إليه، وأنه قد فاتك أمر جلل يهمك معرفته في حياتك، وأن جانبًا من الحقيقة المبهمة قد كشفه الفلاسفة، ففازوا به دون سواهم، ثم دفعوا ثمن ذلك الشيء الثمين أمام الرأي العام (المؤدلج والمسيس) وهكذا، وإنك إنما تُنهَى عن الفلسفة حتى لا تقع على (سر محرج!) أو حجة لا داحض لها، بينما في الحقيقة هذا المصطلح لا يعدو أن يكون وصفًا لفن اجتهادي من فنون العلوم الإنسانية التي تتداخل مع ما سواها من العلوم، إن لم تكن أقلها أثرًا على المسيرة الإنسانية، فيما عدا تلك الأفكار القابلة للترجمة العلميلة التي أدت في النهاية إلى تحفيز العلم التجريبي، والواقع أنه ليس من المسلم به أن من لم يعرف الفلسفة، أو يقرأ عنها فقد فاته ما لا يمكن تعويضه أو استدراكه من منافع المعرفة.

ما الفلسفة؟ لو تتبعنا تاريخ الفلسفة بإيجاز، لوجدنا أنها نشأت في القرن السادس قبل الميلاد[1]، على يد (طاليس الملطي)[2]، وأول من بحث في الوجود بحثًا فلسفيًّا هو

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤١١.

(٢) طاليس الملطي Thalesof Miletus (٦٤٠ق. م-٥٤٥ق. م) أول فيلسوف إغريقي وأول فيلسوف عرفه تاريخ البشر وهو من أقدم الحكماء السبعة وهو أول من لقب بالحكيم وهو أول الطبيعيين الذين رسموا أول صورة للعالم مجردة من الدين والسحر وهو أول من توقع كسوف الشمس قبل حدوثه عاش منفردًا متوحدًا بعد تأملات طويله خلص بأن كل شي أصله الماء ويرجع إلى الماء! كان يسير وهو ينظر في السماء فوقع في حفرة وكان إلى جواره عجوز فقهقهت ساخرة منه وقالت: أتنظر في السماء لتكشف سرها وأنت لا تقدر على معرفة ما بين قدميك فتتجنبه!: (موسوعة المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٩١م).

(برمنديس الأيلي)[1] في القرن الخامس قبل الميلاد[2]، ومصطلح الفلسفة طرح لأول مرة في تاريخ الإنسان للتعبير عن محاولة الكشف عن (الحقيقة)، على أن الحقيقة هي مطابَقة الفكر للواقع، وحيث إن الحقائق موجودة أصلًا في هذا الوجود، علمها الإنسان أم جهلها، فلا تاريخ للفلسفة بهذا المفهوم، لكنها علم معرفي يرتبط بالروح السائدة في كل عصر، وبأشخاص وذوات وأحيانًا نفسيات الفلاسفة أنفسهم، ولهذا فهي متغيرة بتغير المرحلة، ولا توجد مهنة (فيلسوف) متفرغ كما هو الحال مع الطبيب والمهندس والأديب مثلًا، بل توجد الفلسفة بوصفها هواية أو نشاطًا جانبيًّا مع تلك المهن الرئيسة لروادها، فمثلًا كان (أوجستين كونت)[3] مصلحًا اجتماعيًّا، وكان (فولتير)[4] أديبًا وسياسيًّا، وكان (هربرت سبنسر)[5] مهندسًا، وإذا ذكر كبار الفلاسفة جاء أسماء هؤلاء في المقدمة، وقد تكون الفلسفة عبئًا على الفكر التجريبي، بل قد تصبح في النهاية عبئًا على

---

(١) برمنديس Parmenide (٥٤٠ ق.م ـ٤٧٠ق. م) فيلسوف الوجود الثابت ترتكز فلسفته على السكون والثبات من مؤلفاته (عن الطبيعة) ولد في مدينة إيليا جنوب إيطاليا: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٢٣).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦٢٥.

(٣) أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨م- ١٨٥٧م) الموافق (١٢١٢- ١٢٧٣هـ) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي صاحب كتاب الفلسفة الوضعية يعتقد بقانون المراحل الثلاث: المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة الوضعية: (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص٣٩٢).

(٤) فولتير (François-Marie Arouet (Voltair (١٦٩٤ـ١٧٧٨م) الموافق (١١٠٥-١١٩٢هـ) ولد ومات في باريس واسمه الحقيقي فرانسوا ماري آرويه واشتهر بفوليتر أديب ومسرحي فاقت شهرته أوروبا كان فيلسوفًا متسامحًا ساخرًا من الكتب المحرفة والأديان المزيفة واجه معارضة شرسة حتى بعد موته حرم من الدفن بمقبرة العظماء ولكنه نقل إليها بعد ١٣ سنة من وفاته وشيّع رفاته أكثر من ٦٠٠ ألف من الرجال والنساء: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٧١).

(٥) هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠- ١٩٠٣م) الموافق (١٢٣٥- ١٣٢١هـ) مفكر وفيلسوف إنجليزي حديث يرفض الألقاب مات جميع إخوانه ونشأ بعزيمة قوية ينظر إلى المغزى الفلسفي نظرة شمولية سعى لإيجاد مركب للمعرفة العلمية ينظر للتطور على أنه عام في كل شيء وبنى نظريته في النشوء على وراثة الصفات المكتسبة أعجب بنظرية التطور لداروين كرس نفسه لتنقيح الفلسفة التركيبية وتفرغ لذلك حتى إنه لم يتزوج قط ولم يفكر في الزواج إلا بعد أن أدرك أن عمره قد انقضى وساءت حالته الصحية: (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص٤٣٥).

المعيشة والرزق لروادها، فعندما تفرغ كلٌّ من (إيموائيل كانت)[1] و(رينيه ديكارت) للفلسفة، اضطرا إلى البحث عن مصدر رزق يعيشان منه[2]، إقرارًا ضمنيًّا منهما بأن الفلسفة وحدها لا تسمن، ولا تغني من جوع من الناحية المادية، وأنها مهنة إضافية على حياة الإنسان يمارسها أوقات فراغه متى شاء، وهذا يجعل مجمل أفكار الفلاسفة أفكارًا استرخائية تتغير في الشدائد، وأن الأفكار التي تولدت في الشدة كانت تعكس روح النقمة والثأر كتلك الأفكار التي جاء بها أمثال نيتشه وماركس.

وإذا كان العلم التجريبي التراكمي هو محاولة من الإنسان للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لمنافعه، فقد كانت الفلسفة وسيلته الأولى لنيل حريته واسترداد إنسانيته وكرامته، وإن تعجب، فعجب أنه في الوقت الذي ارتبط فيه مصطلح الفلسفة عند بعض الناس على أنه بوابة للشك! فإن هذا العلم قد نشأ أصلًا من الإقرار بالألوهية، فقد كان اليونان القدماء يطلقون على من يشتغل بعلوم الكون وعلله (سوفوس) أي الحكيم، ومنه اشتقاق الحكمة (سوفيا)، وتأبى الفطرة السليمة إلا أن تتحرك لدى (فيثاغورس)[3] في القرن السادس قبل الميلاد، فيعترض على هذا المصطلح، قائلًا: إن الحكيم هو الإله وحده! وما أنا إلا فيلسوف؛ أي: مُحبٌّ للحكمة، فأدخل عليها كلمة (فيلو) وتعني (محب) ليصبح المصطلح (فيلو سوفيا)، وعند ترجمة كتب اليونان القديمة عُرّب هذا المصطلح إلى (فلسفة)، وتعني الحكمة والمشتغل فيها هو الفيلوسوف[4].

---

(١) إيموائيل كَانْت Immanuel kant (١٧٢٤- ١٨٠٤م) الموافق (١١٣٦- ١٢١٩هـ) فيلسوف ألماني من أعظم فلاسفة العصر الحديث ولد في مدينة بكونجسبرج وهو مؤسس الفكر الغربي الحديث انطلقت فلسفته من العلوم المادية الدقيقة مثل الفيزياء والفلك ونشأة الكون لتكوين نظرة معرفية شاملة في الكون وترتكز فلسفته على أن مصادر المعرفة هي الحس والعقل وليس الحس وحده ولا العقل وحده وأن للعقل أفكارًا نظرية مركوزة فيه أطلق عليها (قوانين العقل المنظمة) وأن قدرة العقل مرتبطة بالظواهر الحسية: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٢٦٩).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤١٣.

(٣) فيثاغورس Pythagoras (٥٨٠ ق. م- ٥٠٠ ق. م) فيلسوف يوناني أسس مدرسة الفلسفة الإيطالية القديمة كان جادًّا في حياته يرتدي ثيابًا بيضاء ويمسك عن الضحك والمزاح يرد جميع الموجودات إلى أصل واحد، ويرى غاية الإنسان أن يكون على وفاق مع (الإلهي) وأن يتبع الله: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٨٠).

(٤) الفلاسفة الإسلاميون بين المعتزلة والأشاعرة علي مصطفى موقع شبكة الألوكة الشبكة العنكبوتية.

وعلى الرغم من هذا المدخل المريح لعلم الفلسفة إلا أن مفهومها قد تضخم بصورة متعاظمة عند غالبية من يجهلونها، حتى ظنوا أنها شيء عظيم، من حُرم منها فقد حرم خيرًا كثيرًا، ومن لم يتذوقها فهو ناقص الحصيلة المعرفية، وكأنه قد ضاع، وأضاع غيره بتفويتها، والحقيقة أن الفلسفة وإن كانت فنًّا وعلمًا إنسانيًّا برز فيه فلاسفة تاريخيون لا نقلل من شأنهم في مجالهم، إلا أنها تبقى محصورة في أضيق إطار من حيث عدد المهتمين بها، ويكفي مقارنة محدودية عدد الفلاسفة وحتى إبرز تلامذتهم المعروفين بالشراح، بالسواد الأعظم من البشر الذين يعيشون حياتهم الطبيعية، ويدركون عدم ضرورة معرفة الفلسفة أصلًا في حياة الإنسان، ويمكن القول بكل طمأنينة: إن الفلسفة بمباحثها القديمة لا مستقبل لها في عالم اليوم، ولكنها بمفاهيمها الجديدة وسيلة فاعلة لتطوير آليات الحركة العقلية لفهم الأشياء ورسم إستراتيجياتها وخططها المستقبلية في جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية[1]، وعلى كل حال تبقى الفلسلفة علمًا له موقعه في التاريخ، له أصوله وآلياته ومذاهبه المعتبرة في عيون الباحثين والمتخصصين في العلوم الإنسانية إلا أنها ليس بتلك الأهمية التي يحظى بها العلم التجريبي.

*****

مذاهب الفلسفة

تختلف المنطلقات الموضوعية لعلم الفلسفة من مدرسة لأخرى، ويبقى الاجتهاد فيها مفتوحًا، فهناك من إذا أُطلق مصطلح (الفلسفة) قصد به الإشارة الى المذاهب الرئيسة لها، وهي (الفلسفة الحسية والمثالية)، و(فلسفة الشك)، و(فلسفة التصوف)، وهناك من يصنفها إلى المذاهب الثلاثة المشهورة (الواقعي الطبيعي) و(العقلي) و(التجريبي)، وهناك تصنيف ثالث يرى أن الفلسلفة ثلاثة أقسام (فلسفة الوجود): وهي التي تبحث في الكون وعلته، وتبحث عن طبيعة الموجود وحقيقته وأصله وعلته، أي تبحث في أمر الخالق والمخلوق، و(فلسفة المعرفة): وهي التي تبحث في العقل وكنهه

(١) حوار الفلسفة والعالم: سؤال الثبات والتحول إشراف نابي أبوعلي مقال: الفلسفة وخطاب النهايات، الدكتور موسى عبدالله، دار الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٣٣.

وقدرته، وتجمع الآراء التي قالها الفلاسفة في كيفية حصول المعرفة ووسائلها ومبلغها من الصحة، و(فلسفة القيم): وهي التي تبحث في كنه الخير والشر والجمال والقبح[1]، وهناك من يقسم الفلسفة إلى شرقية تشمل حضارات الصين والهند ويقول: إنها تقوم على الدين، وفلسفة غربية تقوم على العقل في أوربا وأمريكا، وهناك من يقسمها إلى قديمة وحديثة، وهكذا اجتهادات بشرية متعددة ولا مشاحّة في ذلك.

أما مصطلح (الفلسفة الأولى) فهو من اجتهادات (أرسطو) وهو خاص بعلم البحث في الموجود على ما هو موجود، وأطلق المتأخرون على الفلسفة مصطلح (الإلهيات) وسماها (ابن رشد)[2]: (علم ما بعد الطبيعة)، وعرفها (ديكارت) بأنها (معرفة الأمور المعقولة)، وانتهى بعض الشراح إلى أن الفلسفة الأولى هي ما يعرف بالميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة)، وأن (الفلسفة الثانية) هي البحث في العلوم الطبيعية من فيزياء ورياضيات ونحوها[3].

والفلسفة فضاء مفتوح بلا حدود، وأمواج فكرية مضطربة ومتعارضة ومتناقضة ومتطابقة أحيانًا، ليس فيها حق مطلق ولا باطل مطلق ولا عصمة للفلاسفة، ولا ينصح بتذوقها دونما شبع منها وارتواء، يقول عنها (إيموائيل كانت): «إن البحث في الميتافيزيقيا هاوية لا قاع لها ولا قرار، وأنه محيط مظلم لا شواطئ له ولا منائر يهتدى بضوئها»[4]، وعلى الرغم من شهرته العالمية بعد صدور كتابه الشهير (نقد العقل الخالص)[5]، فقد

---

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٣.

(٢) ابن رشد (١١٢٦- ١١٩٨م) الموافق (٥٢٠- ٥٩٥هـ) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ويلقب بالحفيد، ويكنى أبا الوليد ولد في قرطبة لأسرة عريقة في العلم تعمق في العلوم النقلية والعقلية الطبيعية يُعدّ الشارح الأول لفلسفة أرسطو اهتم بمشكلات العقل والنقل وأثر بقوة في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى من أهم مؤلفاته (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفقه المقارن (وتهافت التهافت) في الفلسفة ويُعدّ شخصية متعددة المواهب فهو قاضٍ وفيلسوف وطبيب وفقيه: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص١٩).

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص١٥٧.

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٢٨.

(٥) من أشهر الكتب الفلسفية في العالم وهو للفيلسوف الألماني (إيموائيل كانت) صدرت الطبعة الأولي سنة ١٧٨١م والثانية سنة ١٨٨٧م، ويهدف الكتاب إلى عودة منزلة الميتافيزيقا وهي فرع من الفلسفة ويبحث في الحقيقة الأولية للوجود (مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله أحمد، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٢، ص٣٢٧).

تنامى عنده شعور إيماني خاص في آخر حياته، ورغبة شديدة للمحافظة على الأقل بأصول إيمانه الذي غرسته فيه أمه أيام طفولته، هكذا كان يتمنى، ويقول عن نفسه، بعيدًا عن فلسفته وشهرته التي تجاوزت أوروبا إلى العالم كله، علمًا أنه كان محسوبًا على الفلاسفة المؤمنين بوجود الله إلى حد كبير.

وحتى لا نذهب بعيدًا في تفصيل تباين التصورات الفلسفية نكتفي بما استقر عليه تصنيفها عند المتأخرين الذين حصروها في مذهبين رئيسين: المذهب الأول (الفلسفة النظرية)، ويقصدون بها البحث في ثلاثة مجالات: (العلة الأولى)[1]، و(الكون)، و(المقادير)، وأما المذهب الثاني فهو: (الفلسفة العملية)، وتعني البحث في (حياة الإنسان ونظامه وسياسته وسلوكه)، وهي الأسس الفكرية التي قامت عليها الجامعات ومراكز البحوث، ومنها جاءت تسمية الشهادة العليا (الدكتوراه) التي هي ترجمة للمصطلح (Doctor of Philosphy).

*****

هل الفلسفة ضرورة أم ترف فكري؟

من العدل أن نتناول علم الفلسفة بتوازن موضوعي دون إفراط أو تفريط، ومن الطبيعي أن يكون التقليل من أثر الفلسفة مثيرًا لكل مريد للفلاسفة أو معجب بها، وقد قالها من قبل (جون ستيوارت مل)[2] منتصرًا لرفقائه الفلاسفة: «الفلسفة التي تظهر للسطح كشيء بعيد للغاية عن قضايا الحياة والاهتمامات الظاهرية للبشر، هي

(١) المقصود بالعلة الأولى عند أرسطو هو (الله)! وقد اعتمد في إثبات وجوده على الحركة فقال: «إن كل متحرك لا بد له من مُحَرِّك وهذا المحرك لا يمكن أن يحتاج إلى محرك آخر يستمد حركته من غيره وإلا لتسلسل الأمر إلى غير نه؛ فلا بد من أن ينتهي الأمر إلى محرك أولي أزلي يُحَرِّك ولا يحرَّك أو يفعل في غيره ولا ينفعل بغيره وإلا لَمَا كان أولًا وذلك المحرك الأول هو الله»: (تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو، ابن رشد، تحقيق: عثمان أمين، المقالة الرابعة، ص١٥٠).

(٢) جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣م) الموافق (١٢٢١ - ١٢٩٠هـ) فيلسوف إنجليزي يعتمد في دراساته على المنطق والبحث العلمي ومن أكبر دعاة مذهب المنفعة: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٦٦).

في الحقيقة الشيء على الأرض الذي له أبلغ الأثر عليهم»[1]، ولكن هذا التعصب لها لا ينفي وجود آراء مخالفة لها تمامًا، وليس من الإنصاف إنكار أثر الفلاسفة خاصة فيما يتعلق بالحكمة والقيم والآداب وعلوم الاجتماع.

وعلى الرغم من حضورهم الصاخب فكريًّا، يبقى الفلاسفة فئة قليلة جدًّا بل ومن أقل الشرائح الاجتماعية النخبوية تأثيرًا في حياة الناس مقارنة بغيرهم ممن أثر فيها على مدى التاريخ، يتضح هذا الفارق إذا ما قارنا تأثيرهم بقوة تأثير الأنبياء الذين يرسخون المعتقدات الفطرية السليمة، ويغيرون معالم الحضارة، ويحركون الرأي العام معتمدين على الوحي الذي تتشربه القلوب دون عناء، وكذلك تأثير العلماء المخترعين الذين يقدمون خدمات تقنية ملموسة للإنسان تغير حياته، بل وحتى أثر عامة الناس الكادحين بجوارحهم والموجّهين بعقلهم الجمعي دفّة الحياة نحو التطور مع الزمن، ومن النقاط السوداء في تاريخ الفلسلفة استغلالها من قبل أسوأ تيارين عُرفا في تاريخ الإنسانية، وهما (الحركتان الماركسية والنازية) اللتان اعتمدتا مباشرة على أفكار بعض الفلاسفة المتطرفين ليدفع الثمن عشرات الملايين من الأرواح البرئية، وفي نهاية المطاف يثبت فشلهما، ويكون مآلهما إلى زوال.

لكن إعمال العقل بعد جموده، وتفتيق الأذهان المنغلقة نحو التفكير المباشر والتأمل العميق، من أبرز إيجابيات الفلاسفة الذين حاربوا الطاعة العمياء، وخرجوا على كثير من المألوف الجامد في تاريخ البشرية، واستهدفوا الأتباع الرعاع، الذين كان يعبث بعقولهم الإقطاعيون والأحبار والرهبان، حتى وصل الأمر ببعض الفلاسفة أن كفروا بآلهة اليونان، واعتبروا القائمين عليها كذابين فاسدين محتالين، ثم كرسوا جهودهم يبحثون عن الإله الحق، وسبب ذلك أن فطرتهم توحي لهم بوجوده كاملًا منزهًا، فقرروا البحث عن أصل ثابت غير متغير ومجرد من صفات الموجودات الناقصة التي يدركونها أمامهم، بحيث يصبح هذا الثابت إلهًا كاملًا موجدًا لكل موجود، وهم بذلك يبحثون عن الخالق[2].

---

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٧٤.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٢.

وإذا كان الفلاسفة والمفكرون وأهل المنطق هم طليعة المبشرين بالمذهب العقلي المادي وحده، فإن الأنبياء يتقدمون البشرية بلا منافس؛ وذلك لأنهم يحملون لواء البيان الحسي والعقلي والغيبي عن ربهم من خبر الوحي الذي يبقى مع الزمن ثابتًا، بينما تزول آراء المخالفين له وأفكارهم، فدور الأنبياء جوهري في تبليغ وترسيخ أصول هذه الأديان السماوية الباقية والمعروفة التي لازمت الأجيال روحيًّا وسلوكيًّا، خاصة باتحاد رسالاتهم من حيث المضمون العقدي على التوحيد: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولو اقتصر دور الأنبياء على الإصلاح الديني للدنيا فقط، لنافسهم العلماء المخترعون بتصدر قائمة التأثير حضاريًّا والدخول في تفاصيل حياة الناس المادية وتطويرها، فالناس أعلم بشؤون دنياهم حتى من النبيين، ولكن امتداد دور الأنبياء إلى ترتيب أوضاع الحياة وما بعد الموت، جعلهم في الصدارة البشرية والاصطفاء الرباني بلا منازع، ولا سيما أن أثرهم باقٍ على الرغم من مرور مئات بل آلاف السنين على رسالاتهم الخالدة، حيث كانت رسالاتهم شاملة لترتيب شأن الدنيا بما يكفي لعمارة الأرض وشأن الآخرة بما يقود للنجاة والخلود في الجنة.

وأما العلماء المخترعون رواد التقدم التقني والعلمي، فهم القادة الحقيقيون لتغيير ملامح الحضارة البشرية دنيويًّا، لقد تدرجوا بالإنسان من عصره الحجري إلى عصر المركبات الفضائية والأقمار الصناعية والإلكترون والاتصالات، إنهم أعلم بهذا الفن الدنيوي حتى من الأنبياء الذين يعلونهم قدرًا ومكانة، ولهذا منحهم المصطفى ﷺ هذا الحق الدنيوي بقوله الصريح: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»[1]، ويسجل لبعض الفلاسفة دورهم الإيجابي في تحفيز مدارس العلم التجريبي، ولكن ينسب الفضل للمخترع المباشر، وتربط المخترعات باسم أصحابها.

وأما أثر عامة الناس في تطور حياة الإنسان، فإيجابيتهم تكمن في أنهم مادة البشر ومنجم معادنه وميدانه الذي تنطلق منه وإليه التجارب، فمنهم يتشكل الرأي العام و(العقل الجمعي) الذي يجب أن يكون في الاتجاه الإيجابي للأمة، وهم من يصنع العرف السائد والعادة والتقليد الاجتماعي، هم الذين يستقبلون المنتج العلمي فيفعلونه ويسوقونه

(١) الحديث في صحيح مسلم (٢٣٦٣) أن النبي ﷺ قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

ويطورونه، ويصبحون بذلك تابعين مؤازرين لعلمائهم في بحوثهم التطويرية والتكميلية، هذا علاوة على أن عامة الناس هم ميدان اختبار وتطبيق وتجريب كل اختراع علمي جديد، وهم من يتحمله ويحمله ويقومه عبر الأجيال أيضًا، أما الفلاسفة، وإن أضافوا نوعًا من الترتيب المعرفي المتناثر فهم أقل هذه الفئات تأثيرًا، بل لربما أصبح ضررهم في بعض الأحيان أكثر من نفعهم، كما هو الحال في فلاسفة الشؤم والشدة والأفكار الماركسية التي بسببها ارتكبت أبشع جرائم الإنسان ضد الإنسان من قتل وتشريد وإكراه على المعتقد.

إن سبب محدودية إثر الفلاسفة في حياة الناس هو أنهم جاؤوا في موقع هلامي بين الأنبياء الذين يعمرون الدنيا والآخرة بالوحي، والعلماء الذين يعمرون الدنيا بالعلم التجريبي، فليسوا بأنبياء يستظلون تحت ظل الوحي، ويتمتعون بالعصمة الإلهية، وليسوا أيضًا بعلماء ذوي فضل دنيوي لا ينكر أثرهم في حياة الناس في الدنيا إلا مكابر، وعادة ما يوصف الفلاسفة بأنهم أهل كلام وتنظير وخيال مجرد، بل قد يصبحون عالة اقتصادية على العاملين والكادحين، وكل من حاول الربط بين أفكار بعض الفلاسفة وبين العلم التجريبي، كمن يقول: إن (أرسطو) هو المعلم الأول للحضارة الغربية و(فرانسيس بيكون) هو مفسرها، فهو بذلك يخلط الحق بالباطل، ويمارس تكلفًا في نسبة الفضل إلى غير أهله، ويفتقر إلى ما يثبته في عالم الواقع، فلم يكن (إسحاق نيوتن)[1] – مثلًا – الذي أثبت إيمانه بوجود الله بقوله: «في غياب أي دليل آخر، الإبهام وحده من شأنه أن يقنعني بوجود الله»، وبقوله أيضًا: «الإله بمنزلة الخالق الأعظم الذي لا يمكن إنكار وجوده عند النظر إلى عظمة المخلوقات جميعًا وبهائها»[2]، وبكتابه الذي يحمل عنوان (عقيدة الإله الواحد)، لم يكن هذا العالم الفذ ليراجع التراث الفلسفي ابتداء حتى يخرج للعالم بقوانينه المشهورة في الحركة التي أثرت في الفكر الديني نفسه، وحركت العلم الحديث

(١) إسحاق نيوتن Isaac Newton (١٦٤٢ – ١٧٢٧م) الموافق (١٠٥٢ – ١١٣٩هـ) فيزيائي ورياضي إنجليزي وصاحب فلسفة علمية جبارة ويُعدّ من أعظم رواد تحرير الطبيعيات من التكهنات والفرضيات المبهمة ولد يتيمًا في إنجلترا ونشأ بطفولة حزينة من أهم إنجازاته (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) وكتاب (البصريات): (موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، (١٩٨٤م)، الجزء الثالث، ص٣٤٨).

(٢) أخبار الفلاسفة قديمًا وحديثًا، أحمد محمد وليد أيوب، دار العرب للدراسات والفكر والترجمة، دمشق، ٢٠١٣م، ص١١٩.

من أصوله بعيدًا عن النفس الفلسفي، ولم يعكف (توماس أديسون)[1] على كتب الفلاسفة ليخترع للبشرية هذا المصباح الكهربائي الذي أنار لهم ولفلاسفتهم ظلام الليل وظلام تيه الفلاسفة أنفسهم، والقائمة تطول مع غيرهم من العلماء التجريبيين[2].

*****

الفلسفة ليست شرًّا محضًا!

الموضوعية في تقييم الفلسفة أولى من الغلو فيها أو الجفاء عنها، فالفلسفة ليست شرًّا محضًا ولا خيرًا محضًا، بل هي مزيج من النتائج التي حددتها مقدماتها، وضررها يقل وفائدتها تزداد كلما تناولها الباحثون عن الحقيقة من أبوابها الصحيحة، وبمقاديرها الفكرية المتدرجة المكتملة، لكن يجب التنبيه بل والتحذير بقوة من أن الاقتراب من علم الفلسفة دون التبحر به أخطر بكثير من التعمق فيه، فهي كما وصفها (نديم الجسر)[3] بقوله ناصحًا الشباب: «وارحمتاه لكم يا شباب هذا الجيل، أنتم المخضرمون بين مدرسة الإيمان عن طريق النقل، ومدرسة الإدراك عن طريق العقل، تلوكون قشورًا من الدين، وقشورًا من الفلسفة، وإن الفلسفة سبيل الإلحاد، فيقوم في عقولكم أن الإيمان والفلسفة لا يجتمعان، وأن الدين والعقل لا يأتلفان، وما هي كذلك، بل هي سبيل للإيمان بالله عن طريق العقل الذي بني عليه الإيمان كله، ولكن الفلسفة بحر على خلاف البحور، يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه، والأمان والإيمان في لججه وأعماقه»[4]، وقد وافقه تمامًا على هذا الوصف الدقيق الفيلسوف (بسكال) عندما قال: «إذا كان قليل

---

(١) توماس أديسون Thomas Edison (١٨٤٧- ١٩٣١م) الموافق (١٢٦٣- ١٣٥٠هـ) مخترع أمريكي ولد في قرية ميلان بول أوهايو الأمريكية نشأ بليدًا، ولم يمضِ أكثر من ثلاثة أشهر في المدرسة لكن موهبته في الاختراع برزت أخيرًا فابتكر الصور المتحركة ومن أعظم إنجازاته المصباح الكهربائي:

(Encyclopaedia Britannica- Thomas Alva Edison, Matthew Josephson, Last Updated 52014-1-).

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٢٦.

(٣) نديم الجسر مفتي طرابلس ولبنان الشمالي أورد هذه النصيحة على لسان (أبوالنور الشيخ الموزون السمرقندي) الشخصية الثانية في كتابه: (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم و القرآن، ص٢١).

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢١.

من الفلسفة يبعد عن الله، فالكثير منها يرد إلى الله»[1]، ولكن لا بد من الاستزادة أولًا بزاد الوحي الذي يطمئن إليه كل متردد، سواء أخذ بقليل أو بكثير من علم الفلسفة.

وعلى الرغم من هذا الضجيج العالمي حول الفلسفة، إلا أنها لم تكن وثيقة الصلة كل الصلة بالحياة الروحية للإنسان، كما يتوقعه الكثير من الناس، فالرومان مثلًا كانوا يطلبون من الفيلسوف أن يكون موجهًا لمحاسبة الضمير، وحياتهم قائمة بشأنها فيما سوى ذلك، بينما أراد البابوات في القرن الثالث عشر من الفلاسفة حماية العالم المسيحي من الأفكار الإسلامية! وفي القرن الثامن عشر طلب من الفلاسفة تحرير العقول من التقاليد الموروثة ودفعه نحو التحرر منها[2].

والعلم والفلسفة قرينان، يتباعدان أحيانًا، ثم ما يلبثان أن يقتربا مرة أخرى، وقد كان العلم جزءًا من الفلسفة في العصور اليونانية القديمة، واتسع مفهوم الفلسفة ليتجاوز علم الكون الطبيعي في عهد الفيلسوف (طاليس) إلى أن أصبح شاملًا لجميع العلوم في عصر (ديموقريطس) ومن بعده (أفلاطون)[3]، ثم تلميذه (أرسطو)، ثم بعد ذلك تطور العلم متجاوزًا إطار الفلسفة، وكأنه على وشك الانفكاك منها، ليتفوق الدين على الفلسفة في العصور الوسطى، حتى ذابت الفلسفة تمامًا في الدين في القرن الثاني عشر، وفي العصر الحديث (القرن الثامن عشر) انفصل العلم والدين عن الفلسفة نهائيًا، ثم أصبح العلم هو المؤثر في الفلسفة في القرن التاسع عشر، حتى كادت الفلسفة تختفي بالعلم، إلى أن استقلت نهائيًا عن العلم بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن شب العلم عن طوقها، وتجاوزها بمراحل.

ويختلف الناس في تقبلهم ورفضهم لدور الفلاسفة في تطور العلم الحديث، ففي الوقت الذي يمجدهم فيه من يرون أنهم مهدوا للفكر العلمي التجريبي الذي هو أساس الحضارة المعاصرة، نجد آخرين على النقيض كالفيلسوف الفرنسي الكاثوليكي

---

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٢٥.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤١٣.

(٣) أفلاطون Platon (٤٢٨ق. م- ٣٤٨ق. م) مؤسس الفلسفة المثالية وتلميذ سقراط ومعلم أرسطو ولد في أثينا وهو من أشهر الفلاسفة ويُعدّ هو وتلميذه أرسطو من أعظم الفلاسفة في التاريخ الإنساني: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص١٥٤).

(ماريتان)[1] الذي يَعدّ كلًّا من (مارتن لوثر)[2] و(ديكارت) و(جان روسو)[3] مصادر البلوى التي تعانيها المسيحية اليوم[4].

أما الخلل الذي وقع فيه فلاسفة المسلمين - كما يراه المعارضون لهم - فهو أنهم أخذوا علم الكلام عن اليونان مترجمًا بعلاته ليجادلوا به المنطقيين في العصر العباسي، وليثبتوا المسلمات النقلية عن طريق العقل والمنطق عن حسن نية، فجلبوا إلى النص الشرعي غموض المنطق وقيود الفلسفة الشائكة التي تتعارض مع ديمومة النص ومرونته ومناسبته للتكيف المطلق مع كل متغير مستقبلي، ثم ما لبثوا أن استحسنوا حرية البحث في هذا المجال، وتعمقوا أكثر إلى قضايا لربما فقدوا معها بوصلة اتجاه إبحارهم في محيطات تلاطمت فيها أمواج الفكر، حتى كادت تغرقهم، فلم يجدوا عمقًا لهذا الفن إلا لدى الأمم السابقة وخاصة اليونان، فتاه بعضهم، وظهر منه ما لم يستطع معه المجتمع الفطري تقبله، فصدرت من بعض الغيارى مواقف وأوصاف حادة في حق بعض فلاسفة المسلمين، ليس بالضرورة أن تكون مبررة في كل حال، وقابل بعضهم علوم الفلسفة والمنطق بالرفض التام واتهام المنطقيين بالزندقة، حتى قال أحد الرافضين للمنطق مقفلًا بابه بالكلية: «من تمنطق فقد تزندق»[5].

---

(١) ماريتان Jacques Maritain (١٨٨٢- ١٩٧٥م) الموافق (١٢٩٩- ١٣٩٥هـ) فيلسوف فرنسي على منهج توما الإكويني تحول من المذهب البروتسناتي إلى الكاثوليكي متخليًا عن كل ماضيه: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٢٤).

(٢) لوثر مارتن Martin Luther (١٤٨٣- ١٥٤٦م) الموافق (٨٨٨- ٩٥٣هـ) مؤسس المذهب البروتستانتي العالمي ولد في ألمانيا وعارض تقاليد اللاهوت المسيحي يرى أن الله يُعرف بالفطرة: (موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٣).

(٣) جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢م- ١٧٧٨م) الموافق (١١٢٤- ١١٩٢هـ) فيلسوف الروح والعقل ولد في جنيف عانى عقدة الشعور بالاضطهاد وكاد يقترب من الجنون عاطفي جدًّا ومثير للعواطف يغلب العاطفة على العقل يعتقد أن الإنسان خير بطبعه من أشهر كتبه (العقد الاجتماعي) نشره عام ١٧٦٢م: (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص٢٣٧).

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٢٦.

(٥) هذه العبارة قالها إمام الحديث ابن الصلاح الشهرزوري المتوفى سنة ٦٤٣هـ واستخدمها شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٩هـ، واستخدمها أيضًا العثمانيون الأتراك في وصف من يستخدمون المنطق في تأويل الأسماء والصفات وعلم الغيب.

والحقيقة التي ربما غابت عن الكثير ممن سبقونا في هذا الفن هي أن المسلمين، وإن كانوا لا يحرمون علمًا مباحًا في أصله، ولا ينفرون من فن مستحسن، إلا أنهم ليسوا في حاجة للمرور من النفق نفسه الذي مرت به الأمم الأخرى فلسفيًّا ومنطقيًّا للوصول إلى الحقيقة، حيث لا وحي لديهم ولا كتاب محفوظًا عندهم، كما هو حال المسلمين بحمد الله، فلجؤوا للمنطق بحثًا عن علاج للمشكلات المعرفية المستعصية على الفكر البشري، أما حال المسلم الثابت على فطرته المستنير بوحي ربه أمام علم المنطق وفنون الفلسفة، فهو الاستغناء بالوحي والاستئناس بالفطرة مع الحياد اليقظ، وهذا ما أكده شيخ الإسلام (ابن تيمية) بقوله: «فإني كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد»[1].

*****

تعاظم ذوات الفلاسفة وأفكارهم

في كثير من الحالات ينطلق الفيلسوف من ذاته المتضخمة إلى فضاء مفتوح لا يحده سقف، ويصل الغرور ببعضهم أن ينسى من حوله، فيتمدد بكل اتجاه، لقد تخيل الفيلسوف الألماني (هيجل)[2] أن التاريخ سيتوقف بقيام الدولة البروسية التي يحلم بها، وتخيل (كارل ماركس)[3] أن التاريخ سينتهي بقيام الشيوعية التي يحلم بها، وادعى

(١) قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية في (مجمع الفتاوى المجلد التاسع ص٨٢): «فإني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأينا من صدق كثير منها ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه وكتبت في ذلك شيئًا ولما كنت بالإسكندرية اجتمع بي من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد فذكرت له بعض ما يستحقونه من التجهيل والتضليل واقتضى ذلك أني كتبت في قعدة بين الظهر والعصر من الكلام على المنطق ما عقلته تلك الساعة).

(٢) جورج وليم هيجل Georg Wilhelm Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١م) الموافق (١١٨٤ - ١٢٤٦هـ) ولد في مدينة شتوتجارت الألمانية، ويُعدّ أبا الفلسفة المثالية الحديثة ومن أشهر مؤلفاته (جيمس ستيوارت ظاهريات الفكر علم المنطق موسوعة العلوم الفلسفية): (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، ص٦٩).

(٣) كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣م) الموافق (١٢٣٢ - ١٣٠٠هـ) مفكر اقتصادي وسياسي ألماني ولد من أبوين يهوديين، وهو المسؤول مع (إنجلز) عن وجود فكر الماركسية التي أطلقها خصومه على مذهبه الاقتصادي السياسي والإيدلوجي من أشهر كتبه (رأس المال): (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤١٨).

(فرانسيس فوكوياما)[1] أن التاريخ سيتوقف بعد سيادة الأفكار الليبرالية الغربية[2] التي يحلم بها هو الآخر، وهكذا. ولعل حساسية القضايا التي يتطرق إليها هؤلاء الفلاسفة (خاصة فيما لها علاقة بالميتافيزيقيا أو الغيبيات) نتج عنها هذا الدوي المزعج الذي تركوه خلفهم، والذي يفوق حجمهم الطبيعي بدرجات، حيث لا يخلو الأمر من مبالغات في أقوالهم وآرائهم، ولكن الأهم من هذا كله ألا يتلقاها الأسوياء، وكأنها مسلمات مقدسة صادرة ممن لا يسأل عما يفعل، في وقت لا نكاد نجد من تراثهم إلا رفاتهم هذا إن وجد، بينما نرى عموم الناس مختلفين حوله اختلافًا لا يرجى معه اتفاق.

والفلاسفة كغيرهم من سائر الناس، يجتهدون في فنّهم الخاص، فيخطئون ويصيبون ويختلفون ويتناقضون، ولكن تركيزهم على الغيبيات التي لا سبيل لمعرفتها من دون الوحي أدخلهم في أنفاق مظلمة، فآراؤهم أقرب الى غرائب التفكير في الوجود منها إلى المسلمات الصحيحة، ولو تتبعنا تاريخ البشرية لوجدنا عدد الفلاسفة لا يشكل رقمًا يذكر في محيط بلايين الناس من أهل الفطرة السوية، ممن لا ينتظرون بحالٍ موقف فيلسوف أو رأي مفكر ليفسر لهم سر الوجود ومآلاته، فالفلاسفة بآرائهم الغريبة أحيانًا، يبدون للناس وكأنهم مجرد ذرات غبار لا تكدر صفاء المحيط الفطري العظيم لبني البشر، وخاصة عندما يصطدمون بجدار الفطرة السوية وجدارتها، ولذلك لا ننكر أن الفلسفة علم من علوم الإنسان وفنونه، ولكن يجب أن توضع في إطارها الطبيعي دون مبالغة في تضخيمها، ويجب النظر إليها على أنها مجرد آراء وأفكار بشرية متناثرة، والاختلاف فيها هو الأصل، وقد اختلف الفلاسفة أنفسهم فيما بينهم، وأنكر بعضهم على بعض، بل وتقلب بعضهم في حياته من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مستدركًا على نفسه، فقد يبدأ ملحدًا وينتهي مؤمنًا، أما الجريمة الكبرى فهي وضع علم الفلسفة البشرية القائم أصلًا على قواعد مضطربة في مصاف الوحي المنزل على الرسل من رب الخلق بوصفه مصدرًا معرفيًّا للغيبيات، إنه بحق خطأ جسيم وسوء أدب مع الخالق وضرب من الظلم والإجحاف والتضليل المنكر في حق الوحي المقدس، وصدق الله

(١) فرانسيس فوكوياما F. Fukuyama فيلسوف أمريكي معاصر ومن أشهر كتبه (نه التاريخ) ولد عام ١٩٥٢م (وهم الإلحاد، شريف، ص٣٤).

(٢) مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله أحمد، (مرجع سابق)، ص١٢٩.

القائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩- ٢٣].

إن على المسلمين اليوم أن يرفعوا رؤوسهم عاليًا، وأن يفخروا بدينهم، ويدركوا أنهم هم الأعلون، وأن عزتهم تتجلى في وجود قرآن عظيم بين أيديهم، راسخًا رسوخ الجبال لم يتغير، ولم يبدل، ولم يتبدل طيلة عمره الذي مضى منه ما يقارب الألف ونصف الألف من السنين، بينما لا تكاد تجمع قاسمًا مشتركًا لغالبية الفلاسفة على رأي موحد، بل حتى آراء آحادهم لا تصمد كثيرًا أمام رياح التغيير والتجديد المتتابعة مع الزمان، تتعرض للنقد الجوهري ولربما للإلغاء تمامًا، ولا مجال مطلقًا لمقارنة ضعف صمود موقف الفلاسفة مجتمعين عبر التاريخ بآرائهم مع قوة صمود الوحي منفردًا منذ أنزله الله على رسله، وعلم الفلسفة علم خيالي نظري بحت، لا يرقى إلى مستوى مصداقية العلوم التجريبية والأدبية والتاريخية الأخرى، هذا إضافة إلى لغته الركيكة والمستعصية فهمًا إلا على المتخصصين في هذا الفن، وعادة ما يتكلف بعض الفلاسفة في القول لإظهار مهاراتهم المعرفية أمام قرنائهم، فيكتب لهم بلغته الاستعراضية، ثم يسوق كتابه للناس عامة، فيحرم الناس من فهم فكرته، يقول ابن سينا مثلًا لوصف الزمان: «وأما الزمان فهو شيء غير مقداره! وغير مكانه! وهو أمر به يكون (القبلُ)، الذي لا يكون معه (البعدُ)، فهذه القَبلية له لذاته ولغيره، وكذلك البَعدية، وهذه القَبليات والبَعديات متصلة على غير نهاية، والذي لذاته هو قبل شيء، هو بعينه يصير بعد شيء، وليس أنه (قبل) هو أنه حركة بل معنى آخر...»[1]، أرأيت كيف تحس وكأنك تحت وطأة كلام ثقيل ينفر منه العقل المسترخي، قارن ذلك بحالك وارتياح نفسك وأملها في حياة طويلة وأنت تنصت إلى هذا النص السلس اليسير اللين على المسامع والعقل والقلب يصف الزمان بكل ما نحتاج إليه نحن البشر وبكفايتنا في حياتنا منه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٥٣.

ومن صور التكلف الفلسفي الثقيل قول (أرسطو) عن الوجود: «إن أي شيء بالضرورة، إما أن يكون أو لا يكون، ومن ثم فإنه سوف يكون، أو سوف لا يكون، ولكن لا يستطيع المرء أن يفصّل، ويقول: إن شيئًا من الأشياء أو غيره ضروري»[1]، ويقول أيضًا: «إن قولنا عما يكون: إنه لا يكون، أو عما لا يكون إنه كائن، قول باطل، في حين أن قولنا عما يكون: إنه كائن، وعما لا يكون إنه غير كائن، هو قول صحيح»[2]! والحقيقة أن كل ما يحاول قوله بهذا التكلف قد احتوته وزيادة آية قصيرة وجيزة بليغة من سورة القمر إذا ما تم فهمها في إطار الإيمان بالله والعبودية له، في كلمات محدودة ميسرة للفهم العام وخالية من التكلف المنفر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

*****

الفلاسفة والنفسيات المتأزمة

إذا سلمنا بأن البيئة وظروف النشأة والظروف السياسية والتاريخية والاجتماعية، هي التي تصنع شخصية المفكر أو الفيلسوف، ومن ثم تعكس لنا طبيعة آرائه وأفكاره، فليس من الإنصاف أن يلزم الناس بقبول تلك الآراء خاصة أن بعضها شاذ أو متناقض تحت اسم فلسفة صنعتها الظروف المرحلية للفيلسوف بخيرها وشرها، فهذا الفيلسوف الألماني (**فريدرك فيلهيلم نيتشه**)[3]، يُعدّ مرجعًا معتبرًا للكثير من التيارات المناوئة للدين والوحي والغيبيات، لكنه نتاج بيئة مأساوية، إنه ابن العائلة المتدينة جدًّا، فوالده قسيس بروتستنتي، وهذا جعل من (نيتشه) متعصبًا جدًّا ضد الدين والكنيسة وأفكارها، واعتبرها سبب الشر في الوجود، ثم اتخذ موقفًا معاديًا لجميع الأديان، ووالده مقرب

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٢.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٢٨.

(٣) فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) الموافق (١٢٦٠ - ١٣١٨هـ) فيلسوف ألماني ولد في ريكن وهو المؤسس لفلسفة القوة ومن أعظم الفلاسفة تأثيرًا في القرن العشرين من أشهر مؤلفاته كتاب (هكذا تكلم زرادشت) وكتاب (عدو المسيح): (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٥٠٨).

من الملوك حتى اختار اسم ابنه (فردريك)، ابتهاجًا باسم الملك (فريديرك الكبير)[1]، وهذا التقارب بين عائلته وبين الملك أوجد عنده عقدة أخرى من هذه المبالغة في الولاء، وبعد وفاة والده عام ١٨٥٩م وهو لايزال في المراحل الأولى من الدراسة، نشأ شابًّا متشائمًا جدًّا، دفعه ذلك إلى الإعجاب بفيلسوف التشاؤم (آرثر شوبنهور)[2]، ثم شارك في حرب السبعين عامًا ممرضًا متطوعًا، فطرد من الجيش بعد أن ارتكب خطأ عسكريًّا، ثم أصيب بالجنون عام ١٨٨٩م وأقام في مستشفيات (بازل) حتى وفاته عام ١٩٠٠م، وقد بلغت به الأنانية أو الأوحدية أن قال عن نفسه: «إن قولي: إن العالم تمثيل لي، قضية لا بد أن يقبل بها الجميع حالما يفهمونها»[3].

لقد كان (نيتشه) وعاء سوء يحوي كل نظرة سوداوية وتشاؤمية للحياة المحسوسة، فتنكر لها، ففي الوقت الذي نجد فيلسوفًا متوازنًا مثل (سقراط) يقول عن المرأة إنها: «أحلى هدية قدمها الله إلى الإنسان»، نجد (نيتشه) يبالغ في نسبة الشر إليها إلى درجة أنه اعتبرها (فخًّا نصبته الطبيعة للرجل!) وهو يرفض الماضي تمامًا، والغريب أنه اشتهر بأنه فيلسوف القوة، بينما الأولى أن يكون فيلسوف النقمة، لقد هاجم الفلسفة والأخلاق بالجملة وقال عن العقل إنه: «خطير يدعي معرفة كل شيء»[4]، لكنه بهذا الموقف المتطرف يعكس بيئة المصائب والمعاناة التي كابدها، فأوصلته إلى هذا المستوى

---

(١) فريدريك الثاني الكبير Friedrich II (١٧١٢- ١٧٨٦م) الموافق (١١٢٤- ١٢٠٠هـ) من أشهر ملوك بروسيا وهو ابن فريدريك وليم الأول ولقِّب بالكبير لنجاحه في مجالات متعددة عاصر التنوير وهو حاكم شمولي مستبد ولكنه مستنير: (الملك فريدرك الثاني والإسلام: الصداقة المزعومة، مؤنس مفتاح، القدس العربي، العدد ٧٩٠٥، ٣٠ أكتوبر ٢٠١٤م، ص١٢).

(٢) آرثر شوبنهور Schopenhauer Arthur (١٧٨٨- ١٨٦٠م) الموافق (١٢٠٢- ١٢٧٦هـ) فيلسوف ألماني يتميز مذهبه بالقوة والسرعة اختار والده اسم آرثر لكونه اسمًا عالميًّا في جميع اللغات الأوروبية طاف أوروبا كلها قبل بلوغه السادسة عشرة من عمره ليس لديه أي رجاء أو أمل لكنه يبحث عن الحقيقة واشتهر بأنه فيلسوف الشؤم والشقاء عاش طفلًا وحيدًا بلا أم ولا وطن ولا صديق مات أبوه منتحرًا وماتت جدته وهي مصابة بالجنون وهجرته أمه ٢٤ عامًا من أشهر كتبه (العالم كإرادة وفكرة): (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٠٥) وكذلك (قصة الفلسفة، وول ديورانت، مكتبة المعارف، بيروت، ترجمة: الدكتور فتح الله محمد المشعشع، الطبعة السادسة، ص٣٨٨).

(٣) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٦٤.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٥١٣.

من الانتقام، يقول المفكر والفيلسوف الإسلامي عبدالرحمن بدوي[1]: «إن (نيتشه) عندما هاجم (الله)، إنما هاجم الواقع الأخلاقي الذي تصوره المسيحية باسم الله»[2]، ولك أن تتخيل أخي القارئ، أن أفكار (نيتشه) كانت من أقوى الدعائم التي قامت عليها الحركة النازية.

وعلى الرغم مما يعرف عن بعض الفلاسفة من حكم وآراء حصيفة، فإن لبعضهم من الغرائب ما لا تجد له تفسيرًا منطقيًّا مقبولًا، فمثلًا كان (أفلاطون) مع شهرته العالمية، يتدروش، ويمشي حافي القدمين، ولا يغير ملابسه طوال العام[3]، وهناك مدرسة فلسفية يعرف أتباعها بالكلبيين (Cynics) وهم مجموعة من الفلاسفة يرون أن حياة الكلب هي المثل الأعلى! التسوّل والزحف! فلا يرتبون مأكلهم ومشربهم، ولا يقتنون ثروة، ولا يتزوجون بنية تأسيس أسرة، يعتقدون أن الكلب سعيد وراضٍ بحاله جدًّا في ظل هذه الظروف؛ لذلك يجب أن يتبع الإنسان هذه الخطوات ليصل إلى السمو !وكان من أشهرهم الفيلسوف (ديوجين)[4] الذي كان عدوًّا للمدنية، عاش شحاذًا في شوارع أثينا، وعاش أغلب حياته في برميل كبير، وكان يمشي، ويحمل مصباحًا في النهار، يزعم أنه يبحث عن رجل فاضل واحد! وكان يرى في الفقر فضيلة[5]، وكان (شوبنهور) لا يحلق شعر وجهه مطلقًا، وقد أوصى الفيلسوف الإنجليزي

---

(١) عبدالرحمن بدوي (١٩١٧- ٢٠٠٢م) (١٣٣٥- ١٤٢٣هـ) فيلسوف مصري ومؤرخ وأحد تلاميذ الفيلسوف الفرنسي الشهير لالاند قدم رسالته للماجستيرعن (مشكلة الموت في فلسفة الوجودية) وقدم رسالة الدكتوراه في (الزمان الوجودي) أمضى عمره في الكتابة عن الفلسفة الوجودية ثم تخلى عنها آخر حياته متجهًا بقوة نحو الوحي: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص١٥٦).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦٠٨.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٥٧٩.

(٤) ديوجين سينوب Diogenes of Sinope (٤١٢ق. م- ٣٢٣ق. م) فيلسوف يوناني يرفض المدنية ويرى أن الفضيلة في الأفعال وليس النظريات كرس حياته لهدم قيم المجتمع ومؤسساته يصرح بانتمائه العالمي ويرفض نسبته إلى دولة او مدينة: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، ص٦٣).

(٥) أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، (مرجع سابق)، ص٦٣.

(إرميا بنتهام)[1] أن يحنط جسده بعد موته؛ لما قد يجده الآخرون من سعادة في النظر إليه[2]! وحتى (إيموائيل كانت) الذي يُعدّ من أحكم الفلاسفة وأرشدهم عقلًا، كان يمشي مقنعًا خوفًا من الإنفلونزا والتلوث، ولا يتنفس إلا من أنفه احتياطًا للسلامة[3]، وإذا تجاوزنا هذه الشكليات إلى الأفكار، فهم أيضًا ليسوا مختلفين مع من حولهم فحسب، بل أيضًا فيما بينهم مختلفون ومتشاكسون في أفكارهم حول الحقائق والمسلمات، ولقد ضاق (فولتير) ذرعًا بأقرانه الفلاسفة قديمًا وحديثًا، وقال إن: «رئيس كل مذهب من مذاهب الفلسفة كان دجالًا نوعًا ما»، وقال:«كلما سرت أكثر، زادت قناعتي أن الميتافيزيقيا (الغيبيات) بالنسبة إلى الفلاسفة كالقصص بالنسبة إلى النساء)[4]، لقد كان فولتير الأديب والفيلسوف شجاعًا في طرح أفكاره، وله مواقف قوية ضد الخرافة التي يمقتها بشدة، بينما يقدر جدًّا السعي للبحث عن الحقيقة بعيدًا عن الخرافة والأوهام.

وقد أورد قصته مع الكاهن البرهمي الذي تمنى لو لم يولد أبدًا! فلما سأله (فولتير) عن سبب هذا الإحباط؟! أجاب بأنه قضى أربعين سنة في الدراسة وخسارة الوقت، معتقدًا أنه مركب من المادة دون أن يستطيع إقناع نفسه بحقيقة ذلك! ثم تحدث فولتير في اليوم نفسه مع امرأة عجوز تعيش قريبًا من ذلك البرهمي، وسألها فيما إذا كانت مهتمة لعدم فهمها لكيفية خلقها كما هو حال البرهمي؟ فلم تفهم سؤاله أصلًا! ونفت أنها تفكر في شيء مما يشغل به البرهمي نفسه، ويفني به عمره، مكتفية باعتقادها بإله الهندوس! تعتقد أنها أسعد الناس إذا ما سكبت قليلًا من ماء النهر (المقدس) على جسدها، ولما وجه فولتير سؤاله إلى ذلك الكاهن قائلًا: ألا تشعر بالخجل من شقائك، بينما تشاهد امرأة قد أراحت نفسها مما أنت فيه وعلى مقربة منك، لمجرد أنها لا تشغل نفسها بما أشغلت به نفسك، أجاب بقوله: «لقد قلت لنفسي أكثر من مرة: إني لو كنت جاهلًا

---

(١) إرميا بنتهام Jeremy Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢م) الموافق (١١٩٨ - ١٢٤٨هـ) فيسلوف إنجليزي ومنظر للمذهب الحسي على خطى إيبقور وهوبز يرى أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الألم بالطبع أنشأ مجلة وستمنستر للدعوة إلى الإصلاح السياسي (تاريخ الفلسفة الحديثة، كرم، ص٣٣٢).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٥.

(٣) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٣١.

(٤) قصة الفلسفة ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٩١.

كجارتي العجوز لكنت سعيدًا، ومع ذلك فإن مثل هذه السعادة (الغافلة) عند العجوز لا أريدها، ولا أرغب فيها»[1]، ولعل سبب رفضه لحياة تلك العجوز هو كونها تعتقد بآلهة الهندوس الخرافية الشركية، فسعادتها ظاهرية غير متجذرة في أعماق الفكر والعقل، إذ لو كانت تؤمن بالإله الحق لربما تشرّب موقفها، ولكنه كان حريصًا على الحقيقة، ومن الواضح أنه كان مستعدًّا لتقبلها إذا اتضحت له، ولا يبدو أنه مستعد للانتقال من خرافة إلى أخرى، والعقل السليم يثبت أن إيمانًا يتوصل إليه الإنسان بالبحث والتفكر والتأمل، خير ألف مرة من إيمان جامد موروث، قد لا يصمد ثانية أمام رياح العصف الفكري العالمي أو الابتلاءات والمحن.

ويتكرر المشهد مع شخصية (لينين) المثيرة للجدل، فقد كان لظروف نشأته أثر جوهري في طبيعة أفكاره التي تشكلت نتيجة للبيئة القاسية، فقد نشأ في أسرة مضطربة بائسة، حيث كان جميع إخوانه ثوريين متمردين، وكان أخوه الأكبرعضوًا في منظمة إرهابية، فحكم عليه بالإعدام شنقًا لانتمائه إليها، فأثر ذلك في نفسية (لينين)، وزرعت فيه غريزة الانتقام الحادة التي لازمته طوال حياته، وبعد طرده من الجامعة تحول إلى الماركسية، وأطلق على نفسه (لينين)، بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره[2].

وكذلك كانت الظروف القاسية تصنع شخصية رفيق دربه (كارل ماركس)، الذي أقام في لندن عام ١٨٤٩م في ضنك وفقر مدقع، عرضه هو وأسرته للجوع، حتى مات على إثره ولداه، فلم يجد قيمة دفنهما، فتكون لديه ميول لعبادة العمل والعمال، والنقمة على الرأسمالية، وهو الذي ينسب إليه مذهب الماركسية بجميع فظائعه وضحاياه ومآسيه السوداء، والغريب أن مصطلح الماركسية قد أطلقه أتباع خصمه (كونيه)، قدحًا في انحرافه هو وأتباعه عن المبادئ الاشتراكية[3] التي كانوا يتمسكون بها، وكلنا سمع بتلك العبارة المستفزة التي أطلقها (ماركس) عندما وصف الدين بقوله: «الدين أفيون الشعوب»! وكنا نظن أن ماركس قد تجرد من كل دين، وأن هذا

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٩٢.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٠١.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤١٨.

موقفه من الأديان الصحيحة، فتبين أنه لم يكن مخطئًا حين أطلقها في سياق يقصد به أن الأغنياء والحكام يستغلون مفهوم الدين الشعوبي لتخدير الفقراء وحملهم على تحمل البؤس، والسكوت عن حقوقهم المشروعة وعدم المطالبة بها مقابل انتظارهم دخول الجنة والأجر بعد الموت[١]، ومن ثم تستأثر الأقلية بحقوق الأغلبية وامتيازاتهم، والذي يؤكد هذا الاستنتاج أن (ماركس) نفسه رغم عناده واستكباره عن الحق الذي يعلمه، قد تراجع في حدته المعارضة للأديان آخر حياته، وكتب رسالة إلى صديقه (إنجلز)[٢] يشيد فيها بروح الدين الإسلامي، الذي كان وقودًا للثورة المهدوية في السودان التي هزمت الإمبريالية البريطانية[٣]، يقول الأستاذ (نبيل محمد صغير)[٤]: «لا يمكننا أن ننظر إلى الماركسية من زاوية واحدة ضيقة باعتبارها الدين قوى ظلامية وسلبية بذاتها، وإنما تُعدّ الماركسية هذه الظلامية كامنة في تلك التشكيلات الاجتماعية والطبقية التي يوظف من خلالها الدين»[٥].

وممن تمسك بموقفه بعناد، ثم غيّره بعد أن استسلم للقدر (جون مل) الذي كان يؤمن بسلطة العقل المطلقة، حتى مرت به أزمة عقلية أرغمته أن يغير موقفه، ويؤمن بوجود العاطفة إلى جوار العقل[٦]، وتكرر الموقف أيضًا مع الفيلسوف الملحد (ديفد هيوم)، الذي نشأ هو الآخر يتيمًا متدينًا عند عمه القسيس (جورج) المتشدد في الأخلاق والدين، ما ولد لدى (هيوم) كراهية للدين المسيحي خاصة، وللأديان عامة، فنفر من

---

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٥.

(٢) فريديرك إنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠ - ١٨٩٥م) الموافق (١٢٣٥ - ١٣١٢هـ) ولد من أب متزمت دينيًّا وكان إنجلز ابنه الأكبر أعجب بفكر الفيلسوف الألماني هيغل ويُعدّ إنجلز المسؤول الأول مع كارل ماركس عن نشوء المذهب الماركسي أي النظرية الشيوعية العلمية نظرية المادية الجدلية:

(Encyclopaedia Britannica- Friedrich Engels, Oscar J. Hammen, Last Updated 72014-8-).

(٣) مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله أحمد، (مرجع سابق)، ص٢١٢.

(٤) باحث وأكاديمي من جامعة مولود معري- تيزي ويزو- الجزائر.

(٥) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال مقاربة فلسفية للرؤية الماركسية للدين وتفكيك مقولة الدين أفيون الشعوب للكاتب: نبيل محمد صغير، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص١٤٦.

(٦) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٦٧.

التدين أشد النفور، وعندما ألح عليه أهله بدراسة القانون بهدف التكسب رفض، وتعرض لأزمة نفسية كادت تقضي عليه، وعلى الرغم مما نشره من محاولات لإبطال حجج المستدلين بوجود الخالق استدلالًا بالكون المحكم، إلا أنه قال في آخر حياته: «لا مانع من أن يكون هناك إله»! وقبول هذا الأمر بالنسبة إليه كان مشروطًا في اتجاه الفطرة، حيث شدد على أن هذا الإله يجب أن «لا يشبه إله الأديان إلا من بعيد»[1]، ما يعني أنه ليس لديه مشكلة مع إله الكون الحق، بل مشكلته كانت في (آلهة) الأديان التي قرأ عنها، ما دفعه بقوة إلى النفور منها، حيث نراه في موضع آخر يسند أمور المعجزة إلى الله، فيقول: «إن المعجزة خرق لقانون الطبيعة لأمر يريده الله!»[2]، ويعترف بوجود حالات يكون من المعقول التصديق فيها بحدوث أمور غير مألوفة، لكنه يشترط تواتر الخبر عنها، وألا يكون للشهود أي منفعة من وراء إيراد الخبر عنها، إنه بهذا التصريح وكأنه يرفض الخرافة، ويبحث عن الحقيقة على الرغم من أن بعض كتب الفلسفه تجعله على رأس قائمة الملحدين.

وأما فيلسوف الوجودية الدانماركي (سيرن كيركجور)[3] فقد كان الابن الأصغر لأب عصبي جدًّا، كان راعيًا للغنم، ويجدف في غضبه بلا حدود حتى إنه (لعن الله)!! في أول حياته، ثم ندم، وأيقن بالعقوبة من الله، فلما ماتت زوجته، ومات أبناؤه ما عدا اثنين منهم، أراد والدهما أن يكفر عن خطيئته تلك بالقسوة الشديدة عليهما وخاصة ابنه (سيرن) الذي تحطمت كل آماله، وانهارت ثقته بالحياة وهو يرى والده العجوز الحزين يبطش به أشد البطش، وعام ١٨٣٥م أصيب (سيرن) باضطراب نفسي لازمه طوال حياته من قلق وجزع، فأصبح يقلق من الذباب، ويضطرب من صوته، وتسلط عليه الخوف من الجنون، وشغله هاجس الانتحار، فلجأ إلى الشراب لتبديد هذه الهموم! تخيل أن هذا الطفل الذي نشأ في هذه البيئة المضطربة، والعربيد السكّير سيكون فيما بعد

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦١٨.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٣٧-١٣٨.

(٣) كير كجور Soren Kierkegaard (١٨١٣- ١٨٥٥م) الموافق (١٢٢٨- ١٢٧١هـ) فيلسوف دانماركي عاطفي وأديب له تأملات في حياة الإنسان استخلص منها (مدارج على طريق الحياة) سماها المدرج الحسي والمدرج الأخلاقي والمدرج الديني: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٣٢٦).

رائدًا لمذهب (الوجودية)[1] في علم الفلسفة[2]! إن قومًا يقبلون بهؤلاء المأزومين روادًا للفكر والفلسفة لا يستحقون إلا أن يقال لهم كما قال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

إن هذه النفسيات المتأزمة والملازمة لأحوال بعض الفلاسفة، هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن تشكيل كثير من مواقفهم وأفكارهم الغريبة بل وتطرفهم تجاه الواقع والوجود، والغريب تجاهل بعض المكابرين المعاصرين من الشراح المتأخرين لهذه النفسيات المعلولة بالابتلاءات والحوادث القاسية عند بعضهم، فتراهم يجعلون من آرائهم المعلولة مفتاحًا لفهم الحياة وتفسير رموز الكون وأسراره وغيبياته، بل الأغرب من ذلك، هذه الانتقائية اللامنهجية لإعطاء إيحاءات مخالفة للواقع، وكأن الفلاسفة هم من يرفع راية الإلحاد عبر التاريخ! إنه لمن الخطأ عند الحديث عن آراء الفلاسفة عامة أن نضخم مواقف من شذ منهم، أو أن نتجاهل آراء الأغلبية الساحقة من الفلاسفة المتوازنين المنسجمين مع أفكارهم، مثل الفيلسوف المؤمن (سقراط)[3]، الذي سيطرت على نظرته الفلسفية لغة التفاؤل والأخلاق السامية، فابتسم للحياة إلى درجة أنه تناول السم المحكوم به عليه ليموت في سبيل مبادئه النبيلة وهو مبتسم، دون أن يتراجع عن أفكاره التي اعتنقها والتي لم يتقبلها عصره، وأدركها الناس فيما بعد ليصبح سقراط رمزًا قديمًا لكل من يضحي بحياته من أجل الحق.

*****

(١) الوجودية هي: مذهب فلسفي إلحادي نشأ بعد الحرب العالمية الأولى وازداد انتشارًا بعد الحرب الثانية نتيجة لرعب الفناء الذي سببته الحرب وهو مذهب يقوم على تمجيد ذات الفرد والحفاظ عليه على حساب النوع ويطلق العنان للفرد أن يعيش بكل شهواته وملذاته مؤمنًا بوجوده فقط دون غيره: (كلمات من الحضارة، منصور عيد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ص٢٤٨).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٢٧.

(٣) سقراط Socrates (٤٧٠ ق. م- ٣٩٩ ق. م) ولد في أثينا من أشهر فلاسفة اليونان يدعو إلى النظر في الإنسان كان بسيطًا متواضعًا في المأكل والمشرب أمضى حياته يبحث عن الحقيقة بل ودفع حياته ثمنًا لمبادئه لم يؤلف كتابًا ولم يترك أثرًا مكتوبًا يصفه أفلاطون بأنه فيلسوف مستغرق في الأنظار الميتافيزيقية العالية كانت فلسفته نقطة البدء في فلسفة البحث عن المعرفة اتهم بأنه ينكر آلهة الشعب ويفسد عقول الشباب حكم عليه بتجرع السم حتى الموت: (محاكمة سقراط أفلاطون، ترجمة: عزت قرني، سلسلة محاورات أفلاطون النص اليوناني، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ص٣٠).

استدراكات ضرورية في علم الفلسفة

يجب ألا يتجاوز أي علم إطاره وحدوده الطبيعية معرفيًّا ومنهجيًّا؛ كي لا يتداخل مع علوم أخرى، فنفقد الفائدة من الاثنين، والاستدارك على علم الفلسفة لا يعني الوصاية عليها من قبل غير المتخصصين بها، ولا التقليل منها كعلم إنساني قائم بذاته، ولكنه استقراء موضوعي موجز لتسليط الضوء على بعض ملابسات نشأتها وتاريخها وأثرها في حياة الإنسان وتسويقها عبر التاريخ، ومن هذه الاستدراكات الجوهرية ما يلي:

١- يلاحظ أن الفلسفة المعروفة أوروبية المنشأ والتاريخ والجغرافيا بشكل عام، أو هكذا أريد لها أن تكون، مع غياب ملحوظ لفلاسفة الحضارات الأخرى خاصة الشرقية منها، كالحضارتين الصينية والهندية، اللتين تزاحمان الزمن للحصول على مقعد في منصة الفلسفة العالمية التى تتصدرها الفلسفة الغربية قديمًا وحديثًا، على الرغم من أن بلاد المشرق لا تخلو من فلاسفة ومدارس فلسفية أيضًا، لكن تجاهلهم من قبل الغرب المتصدر، له دلالة تردد وحيرة، ولا يخفى أثر الثقل البشري للشرق، وما تشكله أوروبا القليلة سكانيًّا مقارنة بالأعداد الهائلة لسكان الشرق الآسيوي وحضاراته العريقة ما يضع علامات استفهام كبرى حول تجاهلها، لما يصدر منها من علوم وفنون.

٢- قلة عدد الفلاسفة على مدى تاريخها إلى وقتنا الحاضر على الرغم من توافق كثير منهم للفطرة السليمة في آرائه، وأقل القليل منهم يحمل أفكارًا لا تتوافق معها، مقابل بلايين البشر الفطريين المؤمنين السائرين في حياتهم على الإيمان الهادئ دون حاجة للفلسفة وعلم الكلام، فضلًا على أن هؤلاء الفلاسفة مجرد أفراد عاديين لا يوحى إليهم من الله كما يوحى إلى النبيين الذين جعل الوحي من قلتهم كثرة: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] أما الفلاسفة فهم بشر يفكرون مستقلين بذواتهم وبصوت مرتفع، ويطرحون

وجهات نظرهم الاجتهادية المتناثرة في كل اتجاه، حيث نشأت شهرة غالبيتهم من مخالفتهم لمن سبقوهم، فليسوا بملائكة مقربين ولا أنبياء معصومين، إنهم فقط رجال يفكرون، ويدافعون عن آرائهم الخاصة بجرأة زائدة نسبيًّا، ويحاولون إثباتها بالمنطق والبرهان، فمنهم من ينجح، وكثير منهم يخفق في تحقيق ما يهدف إليه.

٣- ارتباط آراء الفلاسفة ومواقفهم بظروف نشأتهم، فالفيلسوف الذي ينطلق من أفكار فطرية هادئة، وتربى في بيئة اجتماعية مستقرة، ولم يتعرض لاضطرابات نفسية، يكون عادة أكثر قدرة على صمود أفكاره أمام مناوئيه، وآراؤه أكثر استقرارًا مع الزمن؛ لقربها من الفطرة السليمة، ومثال ذلك أفكار الفيلسوف الألماني (كانت) التي تتسم بالهدوء، مقارنة بفيلسوف ألماني آخر (نيتشه) الذي نشأ مضطربًا، وأنكر الإله والأديان، ومات مجنونًا، وقد أجرى أستاذ الطب النفسي في جامعة نيويورك (بول فيتز) دراسة على بعض شخصيات ملحدي العصر، وتوصل من خلالها إلى أن الإلحاد قد ينتج من خلل نفسي عصابي يدفعه في اللاشعور رغبة جامحة للتخلص من سيطرة الأب، والتمرد عليه، ثم يتطور الأمر لرفض كل هيمنة في الوجود، وساق مثالًا على ذلك، حالة الفيلسوف الفرنسي الشهير (فولتير) ومعاناته من قسوة أبيه التي جعلته يرفض النطق بلفظ اسم والده إلى جانب اسمه، وكذا الحال كان مع آخرين مثل (لينين وماركس وهوبز وفرويد)[1].

٤- تدارك الفلاسفة بعضهم على بعض، حتى إنك لتجد في الفلسفة كل نقيض، وتجهيل وتسفيه أحيانًا، يقول (ميشيل مونتي)[2]: «هل يقال: إن هناك شيئًا جوهريًّا يرفعنا فوق الحيوان؟ إنه العلم، ولكن ما هذا العلم؟ إذا استثنينا المعارف النازلة بالوحي، لم نجد أنفسنا نعرف شيئًا، ماذا نعرف عن الله؟ لكل فيسلوف جواب، والأجوبة بعضها أغرب من بعض، ماذا نقول عن النفس التي هي أقرب شيء إلينا؟ مع ذلك

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٠.

(٢) ميشيل دي مونتي Michael De Monte (١٥٣٢- ١٥٩٢م) الموافق (٩٣٨- ١٠٠٠هـ) يوصف بأنه شريف من أشراف فرنسا تفقه في الأدب القديم وخاصة اللاتيني يكثر الحديث عن نفسه: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص٢٧).

نجد آراء الفلاسفة أكثر تضاربًا وغرابة، وماذا نعرف عن الطبيعة؟ وعن حقيقة الأجرام السماوية؟ وحقيقة حركاتها، يعارض كوبرنك بطليموس، وما ندري لعل رأيًا ثالثًا بعد ألف عام يقلب الرأيين)[1].

وهذا ما حدث بالفعل مع بعضهم، حيث تصدى (باركلي)[2] المتدين، الذي جعل من (الله) محورًا لمذهبه في فهم الوجود والمعرفة واليقين، (لهوبز) المادي، وكذلك تصدى (كانت) المتدين (لهيوم) الملحد[3]، وهكذا، سبحان الله: الحق موجود كوجود الوجود نفسه أو أكبر، ولا ندري ماذا يجني الإنسان من وراء هذا الصدود غير المبرر عن هذا الحق، قارن حال تناقضات هؤلاء الفلاسفة مع نسق واتساق واطراد وثبات مضمون رسالات السماء كلها مع مرور الزمن، وتعدد الأجيال، إنه والله ينبوع الطمأنينة والراحة الأبدية وأنت تتلقى من الله هذا التوحيد الموحد لجميع الرسالات السماوية، استمع بل استمتع بهطل هذا الغيث المدرار من الوحي المتواصل رحمة للناس من مصدر واحد ليجمع الأنبياء جميعًا على أمر واحد، وقد كان ذلك عبر الأجيال المتعاقبة، استمع: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وماذا أوحى إليهم في الأصل؟ أوحى إليهم التوحيد الخالص: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] عجبًا من أمة هذا قدرها العظيم الصافي من الرعاية الربانية، وتلتفت إلى غيره من الخلق التائهين الضعفاء.

٥- لا يتوقف الأمر عند استدراك الفلاسفة بعضهم على بعض، بل أيضًا تقلب غالبية الفلاسفة أنفسهم من فكر إلى آخر في أثناء حياته، واستدراكه على نفسه، كلما استجد

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص٢٨.

(٢) جورج باركلي George Berkeley (١٦٨٥- ١٧٥٣م) الموافق (١٠٩٦- ١١٦٦هـ) إيرلندي من أصل إنجليزي شخصية قيادية حتى في أثناء مراحل الدراسة يدعو إلى التخلص من فروض الماضي الزائفة من أبرز دعاة المذهب التجريبي ورفض الأفكار الفطرية من أشهر كتبه (مبادئ المعرفة البشرية): (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص١٨٣).

(٣) الدين والعقل الحديث، ولتر ستيس، ترجمة: إمام عبدالفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٨م، ص٢٤٩.

له أمر أخذ به، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل، متنقلًا أحيانًا من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، وهكذا طيلة حياته، فهل من الإنصاف رهن الحقائق الوجودية والمسلمات الكونية للبشر، بهذه الأمزجة المتقلبة غير المحصنة ولا المعصومة، عندما طرح الفيلسوف البريطاني (ألفريد آير)[1] مبدأ نظرية الفلسفة الوضعية المنطقية على أساس مبدأ التثبت، بحيث يتم قبول أي افتراض نفيًا أو إثباتًا على التجربة والرياضة والمنطق، تمامًا كما هو الحال في الكيمياء والفيزياء والرياضة، فوجئ باستحالة تطبيق هذا المبدأ على العلوم الإنسانية، كالفلسفة والمنطق والأخلاق، فأقر بنفسه قائلًا: إن (الفلسفة المنطقية) التي اقترحها أصبحت مليئة بالمتناقضات، فأعلن بنفسه وفاتها في خمسينيات القرن الماضي، فهو الذي أعلن وفاتها كما أعلن ولادتها من قبل[2].

٦- على الرغم من جهود الفلاسفة ورقي لغتهم، وثراء مصطلحاتهم، إلا أنه ينبغي ألا نكترث كثيرًا بنتاجهم الفكري ومحاولاتهم المستميتة للوصول إلى شيء من تفسير علم الوجود بعيدًا عن الوحي؛ لأنهم ببساطة لم يتجاوزوا التخمينات الافتراضية، يقول (كارل باسيز)[3]: «الفلسفة الواحدة هي الفلسفة الخالدة التي تدور حولها كل الفلسفات، ولا أحد يملكها، وإنما يشارك فيها كل فيلسوف بنصيب، ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تحقق شكل بناء عقلي صادق بالنسبة إلى الجميع وصحيح

(١) ألفريد آير Alfred Jules Ayer(١٩١٠- ١٩٨٩م) الموافق (١٣٢٨- ١٤٠٩هـ) فيلسوف إنجليزي ورئيس نادي سقراط في جامعة أكسفورد طرح في كتابه (اللغة والحقيقة والمنطق) مفهوم الفلسفة الوضعية المنطقية التي لا تؤمن بضرورة وجود إله ولا دين ولا روح ولا نفس ولا تدين ولا إلحاد: (رحلة العقل، عمرو شريف، ص٣٧).

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٨.

(٣) كارل ياسبز karl jasper (١٨٨٣- ١٩٦٩م) الموافق (١٣٠٠- ١٣٨٨هـ) فيلسوف ألماني وجودي لا يَعدّ للفلسفة مبادئ بقدر ما يَعدّ دراسة الأفراد مجتمعة هي الفلسفة يعتقد أن الناس يحاولون تجاوز معارفهم من خلال الدين والعلم والفلسفة ولكنهم يفشلون في النه وأنهم يتعلمون من خلال الحوادث الكبيرة مثل الموت والفشل والشعور بالذنب فيدركون عجزهم:

(Encyclopaedia Britannica- karl jasper, Hans Sanner, Last Updated 62013-18-).

صحة مطلقة»[1]، ويقول (ريتشارد رورتي)[2]: «الفلسفة لا تكشف أو تساعد على اكتشاف أي شيء حقيقي عن العالم المستقل)[3]، أي عالم الغيب المجرد، ولو تأملنا أقصى ما وصل إليه الفلاسفة المعرضون عن الدين والوحي لوجدناهم يتنلقون بين ثلاثة مذاهب: مذهب الشك وأشهر فلاسفته (ديفد هيوم) الذي شك في كل شيء حوله ماعدا ذاته، وقال: إنه هو الحقيقة وما حوله أحلام تدور في تفكيره فقط! والمذهب المادي: الذي ينظر إلى أن المادة أصل كل شيء، فما كان مادة كان حقيقة وما سواها فلا، وهذا يعني إنكار ورفض الغيبيات والوحي والأديان، ومذهب وحدة الوجود الذي ينظر إلى أن الإله وحده هو الموجود، وينفي كل شيء بعده، وهذه فلسفة هندية قديمة تلخصها تلك العبارة الشهيرة التي وردت في كتابهم عن الإله بقولهم: «أنا القاتل والقتيل والسكين»! وبطلان مذهب وحدة الوجود بدهيًّا ترفضة الفطرة السليمة، وقد نسفه القرآن نسفًا في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] فشهادة الخالق حقيقة مستقلة، وشهادة المخلوقين من ملائكة وأولي العلم حقيقة أخرى مستقلة، فلا وحدة ولا اتحاد ولكن خالق ومخلوق، وعبد ومعبود.

هذه هي الفلسفة بالجملة، وإن هذه البضاعة الصاخبة من زاد الفلاسفة وجدالهم في الغيبيات وخوضهم في البدهيات، قد يرجح بهم جميعًا سلاسة فكر ذلك الأعرابي البسيط، الذي اختصر أزمة الإيمان الوجودي عنده ببساطته وعفويته الفطرية النقية، عندما سألوه عن دليله على وجود الله؟ فقال: «إن البعرة تدل على البعير، وإن الأثر يدل

---

(1) Two Dimensions Of Human Being In Karl Jaspers' Philosophy– Existence And Hermeneutics, A-T. Tymieniecka, Phenomenology and Existentialism in the Twenthieth Century, Analecta Husserliana Volume 105, 2010.

(٢) ريتشارد رورتي Richard Rorty (١٩٣١- ٢٠٠٧م) الموافق (١٣٥٠- ١٤٢٨هـ) فيلسوف أمريكي معاصر ولد في نيويورك وشغل كرسي الفلسفة في جامعة برنستون ثم جامعة فرجينيا من مؤلفاته (نتائج الذرائعية) و(الفلسفة ومرآة الطبيعة) عمل على تجديد الذرائعية انطلاقًا من منهج جيمس وديوي: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٣٢٦).

(3) Richard Rorty›s Philosophy and the Mirror of Nature : an existential critique, James P. Cadello, The Journal of Value Inquiry, January 1988, Volume 22, Issue 1.

على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير»! ومثله أيضًا بل أرقى منه معرفيًّا، موقف أولئك العلماء التجريبيين المتجردين أمثال (جوزيف بريستلي)[1]، الذي يقول: «هل يمكن لأحد أن يقول: إن الذي صنع العين قد يكون كائنًا يجهل علم البصريات! ولا يعرف شيئًا عن طبيعة الضوء! أو قوانين الانعطاف؟ لا بد من وجود كائن عاقل غير معلول (أي واجب الوجود دون موجد) يكون العلة الأصلية المريدة لكل موجود آخر»[2]، وعلى طريقة الاستنباط الفطري نفسها يقول (وليام بالي) في معرض حديثه عن الأدلة على وجود الذات الإلهية وصفاتها مأخوذة من مظاهر الطبيعة: «عندما نجد ساعة قابعة فوق الأرض نستنتج أن حرفيًّا ذكيًّا قد صنعها، عندما نجد حيوانات ونباتات قد صممت تصميمًا معقدًا، وتتكيف على نحو رائع ينبغي بالمثل أن نستنتج أن خالقًا قديرًا حكيمًا قد صنعها»[3].

*****

(١) جوزيف بريستلي Joseph Priestley (١٧٣٣ - ١٨٠٤م) الموافق (١١٤٥ - ١٢١٩هـ) عالم بريطاني لاهوتي لا يعتقد بالتثليث من أشهر كتبه (بحوث في المادة والروح) وهو عالم كيميائي متميز وهو أول من اكتشف غاز الأوكسجين هاجمه الغوغائيون لأفكاره وأحرقوا بيته ولجأ إلى أمريكا: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص١٥٦ وكذلك The Joseph Priestley House (Pennsylvania Historical & Museum Commission).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٦٢.

(٣) داروين مترددًا، ديفد كوامن، ترجمة: مصطفى فهمي ومحمد خضر، (مرجع سابق)، ص٢٩.